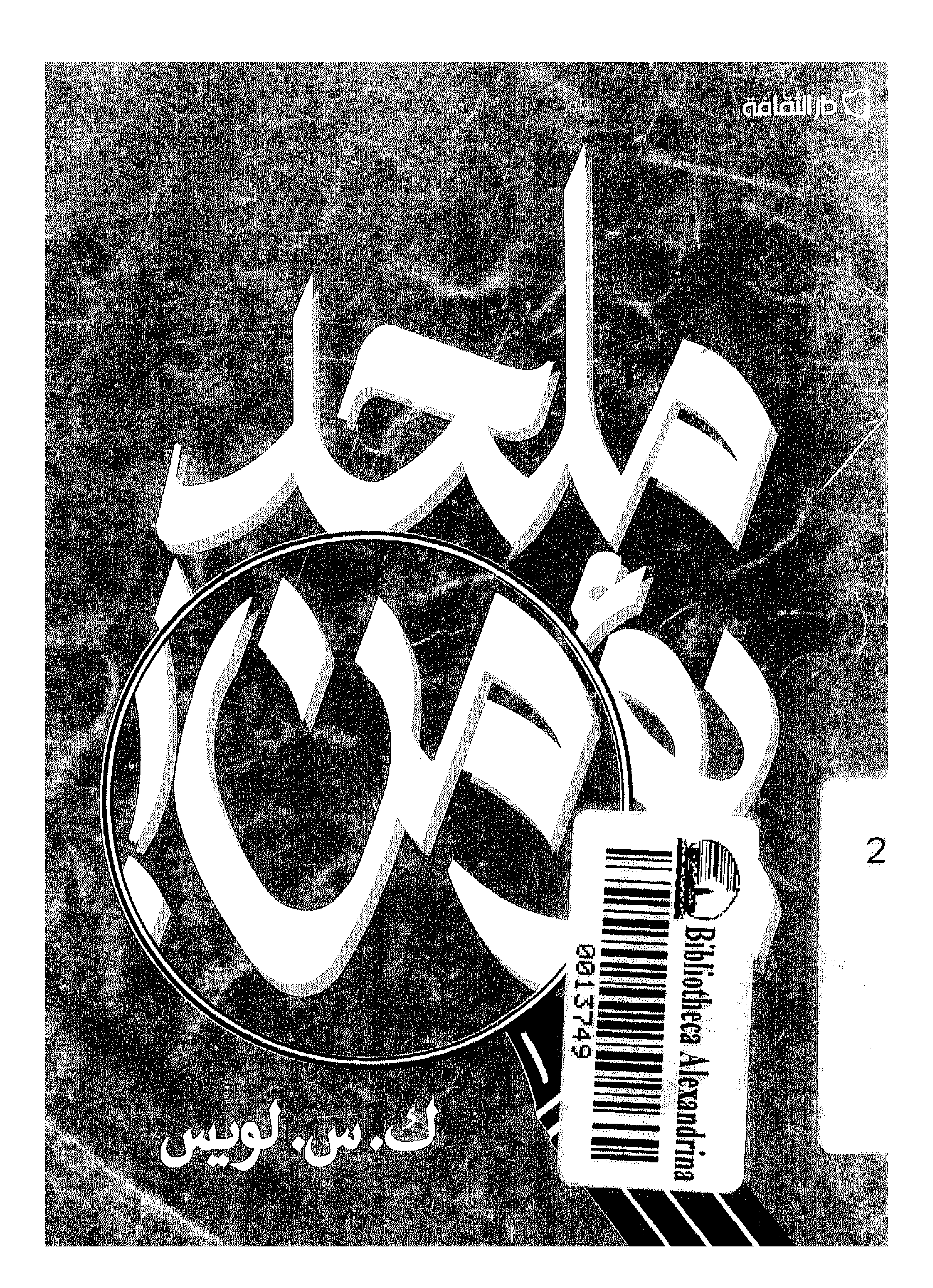


Bibliotheca Alexandrina
0013749

ملحـــد يؤمـــن

فيلسوف كان ملحداً يبرهن عقائد المسيحية
سلسلة أحاديث ألقاها بالإذاعة

كليف س . لويس
الاستاذ بجامعة اكسفورد

نقله الى العربية
القس منيس عبد النور



طبعـة رابعة منقحة ومزيدة

صدر عن دار الثقافة ص . ب . ١٢٩٨ – القاهرة

جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع) ١٠/ ٧ ط ٤ (أ ت) ٨ – ١٣ / ٦٠ – ٦٥ – ٨٧
رقم الايداع بدار الكتب : ٨٢١٦ / ٨٧
طبع بمطبعة : دار نوبار للطباعة – شبرا – القاهرة

في هذا الكتاب

صفحة

مقدمـــــة

اخترنا لهذا الكتاب عنوانا يعبر عن حالة كاتبه أكثر مما يعبر عن موضوعه . فالكاتب ـ لويس ـ كان ملحدا لكنه فى لحظة معينة ـ أضاءت حياته أنوار المعرفة ووقف على أول الطريق : طريق الحق .

ومن كان يعتنق الالحاد ـ أن كان الالحاد دينا ـ هو أقدر الناس على اقناع من لا يؤمن بالله . فهو يتحدث من اختباره وعلمه . وهذا ما تحسه وأنت تقرأ هذا الكتاب الصغير فهو يجيب على أسئلتك ، ويتمشى بك بهدوء ، حتى تصل الى النور الكامل بمعرفة الله .

انه كتاب فلسفى ، لكنك لا تحس بأنه يقدم لك فلسفة عالية ، بل تشعر انه يخاطب عقلك فى سهولة ويسر .

اقرأ هذا الكتاب ، بل ادرسه والله نسأل أن يكون بركة لحياتك .

الجزء الأول

الخطأ[1] والصواب مفتاح لمعنى الكون

الحديث الأول

القانون الأخلاقى

لقد سمع كل واحد منا الناس يتطاحنون . وقد تبدو معركتهم مضحكة أو مبكية ، لكنها على أى حال ذات معنى ! وسوف ننتفع جداً لو استمعنا لما يقوله الناس أثناء المعركة . إنهم يقولون مثلا : « هذا مكان ، فقد كنت جالساً فيه » — « أتركه ، إنه لم يضرك بشىء » — « لماذا تسوق سيارتك قبلى ؟ » — « أعطنى جزءاً من برتقالتك ، فقد أعطيتك من برتقالتى » — « وهل تحب أن يفعل إنسان هذا معك ؟ » — « تعال هنا ، أنت وعدت ! » .

والناس تردد هذه الكلمات كل يوم ، لا فرق فى ذلك بين متعلم وجاهل ، أو كبير وصغير !

ويهمّنا هنا أن نوضح أن الانسان الذى يقول هذا لا يُظهر أن سلوك الطرف الآخر يضايقه فحسب ، بل يهمنا أيضاً أن نراه يستنجد بقاعدة للسلوك ، يعتقد أن الطرف الآخر يعرفها ، ويندر أن نرى الطرف الآخر يرفضها .. بل إننا نرى الطرف الآخر يحاول أن يبرهن أن ما فعله ليس خرقاً لهذه القاعدة ، أو يحاول خلق الأعذار

لذلك ، فيتساءل مثلاً : لماذا ترك الشخص الأول مكانه بعد أن جلس فيه ؟ أو أن الظرف الذى أخذ فيه الآخر من برتقالته يخالف الظرف الحاضر ، أو أن الأحوال لم تساعد على تحقيق الموعد المضروب ! .

على أى حال يظهر أن فكر الطرفين يتجه الى قانون للسلوك اللائق قد اتفقا عليه ، ولابد من هذا الاتفاق ، وإلا فسيكون عراكهما كعراك الحيوانات الذى لا يوافق المعنى الانسانى لكلمة « معركة » . فالعراك ، كما نفهمه ، هو محاولة كلٍ إظهار خطأ الطرف الآخر ، وهذا لا قيمة له ما لم يكن هناك اتفاق على الخطأ والصواب ــ هذا تماماً مثل قوانين لعبة كرة القدم ، لابد من قانون يقبله الطرفان يثبت أن هذا اللاعب أخطأ ، إن كان مخطئاً !

وكان قانون الخطأ والصواب فى الماضى يُسمى « القانون الطبيعى » . ومع أننا اليوم حين نقول « القانون الطبيعى » نعنى قانون الجاذبية أو قوانين الكيمياء ، إلا أن المفكرين الأقدمين حين كانوا يتحدثون عن « القانون الطبيعى » كانوا يقصدون « قانون الطبيعة الإنسانية » . فكما يخضع الحجر الساقط لقانون الجاذبية ، والكيماويات لقوانين الكيمياء ، هكذا يخضع الانسان لقانون الطبيعية الانسانية .. مع الفارق الكبير ، وهو أنه : ليس للحجر أن يختار طاعة قانون الجاذبية ، بينما يستطيع الانسان أن يطيع قانون الطبيعة الإنسانية أو يعصاه .

وقد أطلقوا على قانون الخطأ والصواب « القانون الطبيعى » لأن كل إنسان كان يعرفه بالطبيعة دون الحاجة الى أن يتعلمه . ولم يقصدوا بالطبع أنه لا شواذ لذلك ــ لكنهم بالنظر الى الناس عموماً وجدوا أن الفكرة الانسانية للسلوك اللائق واضحة لكل إنسان .. ولو كانوا مخطئين فى ذلك لأصبحت أفكارنا عن الحرب لغواً ! فما قيمة أن تقول إن العدو مخطىء . ما لم يكن « الصواب » معروفاً لديه كما هو معروف لديك ، وعليه أن يفعله ؟! ولكن إذا كان العدو لا يدرك « الصواب » فاننا نستمر فى محاربته ، رغم أننا لا نلومه !

يقول البعض إن فكرة السلوك اللائق الذى يقبله كل الناس فكرة غير صحيحة ، لأن حضارات وعصوراً مختلفة كانت لها قوانين أخلاقية مختلفة ــ لكننا نقول إن الاختلاف طفيف . فهل نتصور بلداً تحترم الجندى الهارب ، أو تفخر بالرجل المسىء الى المحسنين له ؟!! ان هذا يكون مثل البلد التى تقول إن ٢ + ٢ = ٥ !!

لقد اختلف البشر بخصوص الناس الذين تنكر ذاتك معهم ــ إن كانوا من عائلتك ، أو من وطنك ، أو كل الناس ــ لكنهم لم ينكروا أنك ينبغى أن تضع نفسك ثانياً ، فان الأنانية لم تُمدَح أبداً !!

واختلف الناس فى عدد من تتزوجهم من النساء ، لكنهم اتفقوا فى أنه لا ينبغى أن تأخذ كل امرأة تروق لك ، فإن

الإباحيــة لــم تُقبــل أبــداً !!

والأمـر الملحـوظ أنـك تقابـل إنسـانً لا يؤمـن بمبدأ الخطـأ والصواب . ولكنه سرعان ما يعود اليه حالما تخطىء فى حقه ، أو لا تنّفذ وعداً معه ، فيقول : « هذا خطأ » !! .. وقد تقول أمة إن المعاهدات باطلة ، لكنهم يفسدون قضيتهم بالقول إنهم يريدون إبطال المعاهدات الفلانية لأنها مجحفة بهم . وعلى فرض أن المعاهدات باطلة وأن لا شيء هناك أسمه خطأ أو صواب أو « قانون طبيعى » أو « سلوك لائق » ــ على فرض هذا ، فما الفرق إذاً بين معاهدة عادلة ومعاهدة مجحفة ؟ ! إنهم بقولهم هذا أظهروا أن هناك معاهدة عادلة ، تتفق مع قانون طبيعى عادل يعرفونه !

ينبغى إذاً أن نؤمن بالخطأ والصواب . وقد يخطىء الناس فى تحديد حدود الخطأ والصواب ، لكن هذا يكون بمثابة إنسان يخطىء فى حساباته . والأمر فى هذا لا يتوقف على شعوره بل على عمليات الحساب .

والآن وقد اتفقنا أن هناك خطأ وصواباً ، دعنا ننتقل الى فكرة أخرى ، وهى أنه لا يوجد من ينفّذ « القانون الطبيعى » تماماً ! .. ففى هذه السنة ، أو هذا الشهر ، وبالحرى هذا اليوم تصرفنا تصرُّفاً يخالف ما كنا نتوقع أن يتصرفه الناس معنا .. وقد يكون لنا عذر فى ذلك .. ففلان الذى وعدته ، ولم تتمم الوعد معه ، لم يكن

يذُرْ بخيالك أنك ستكون مشغولاً بحيث لا تقدر على الوفاء بالوعد .
وفى اللحظة التى يعرّفك فيها أحدهم أنك لم تحفظ « القانون الطبيعى » تحاول أن تخلق لنفسك الأعذار .

وليس المهم فى بحثنا هنا أن تكون الأعذار مقبولة ، إنما المهم أننا نحن أنفسنا برهان على عمق إيماننا بقانون الخطأ والصواب !

فإن كنا لا نؤمن بسلوك لائق ، فلماذا نخلق الأعذار لأننا لم نسلك بحسبه ؟ !

والحقيقة هى أننا نؤمن أعمق الايمان بالصواب ، حتى أننا لا نستطيع تحطيمه ، فنحاول التهرب من مسئولية ذلك ، فنسند فضل التصرُّف الصائب لأنفسنا ، ونلقى تبعة التصرف الخاطىء على تعبنا وانهاكنا وظروفنا .

ويمكن أن نلخص ما قلناه حتى الآن فى النقطتين التاليتين :

أولاً : يجد البشر على الأرض أنهم ينبغى أن يتصرفوا بصورة خاصة ، لا يستطيعون منها فكاكاً .

ثانياً : إنهم عملياً لا يتصرفون بهذه الصورة ، ومع أنهم يعرفون « القانون الطبيعى » إلا أنهم يكسرونه !

هاتان الحقيقتان هما أساس كل تفكير واضح عن أنفسنا ، وعن الكون الذى نعيش فيه .

الحديث الثانى

ما هو « القانون الأخلاقى » ؟

بعد حديثي الماضى وصلتنى ثلاثة أسئلة رئيسية :

هل القانون الأخلاقى غريزة ؟

هل القانون الأخلاقى هو العُرف الذى اصطلح عليه الناس ؟

وما الفرق بين الأخلاقيات والمعرفة ؟

وفى هذا الحديث سأجيب على هذه الأسئلة الثلاثة :

هل « القانون الأخلاق » غريزة ؟

كتب إلىّ البعض يقولون : « أليس ما تسمّيه القانون الأخلاق هو غريزة حب الجنس أو النوع* التى نمت كسائر غرائزنا الأخرى ؟ » .

وللرد على هؤلاء أقول :

---

* غريزه حب الجنس أو نوع من الغريزة التى تدفع كل نوع من المخلوقات ليحيا مع جنسه .

(١) إننى لا أنكر غريزة حب النوع ، كما لا أنكر غريزة الأمومة والغريزة الجنسية . وكلنا يشعر بدافع الغرائز له ، فقد تشعر بالرغبة فى مساعدة إنسان فى خطر ، وهذا يرجع لغريزة حب النوع ... لكن شعورنا بالرغبة فى المساعدة يخالف شعورنا بلزوم المساعدة رغماً عن إرادتنا .

إفرض أنك تسمع استغاثة ، فلابد أن يتنازعك عاملان — رغبة فى المساعدة (يرجع لغريزة حب النوع) ورغبة فى البعد عن الخطر (يرجع لغريزة المحافظة على النفس) .

ولكنك تلاحظ — علاوة على ما تقدم — شيئاً ثالثاً يدفعك لأن تطيع الرغبة فى المساعدة دون الرغبة فى الهرب — هذا الشيء الثالث الذى يقضى بين الغريزتين ، لا يمكن أن يكون واحداً منهما ، كما أن النوتة الموسيقية التى ترشدك إلى توقيع نغمة ما دون الأخرى ، هى غير النغمتين !

(٢) إذا تعارضت غريزتان فى عقل الانسان ، ولم يكن هناك سواهما ، فلا شك أن الأقوى منهما تنتصر ! لكننا نجد أثناء هذه المعارضة أن القانون الأخلاقى يؤيد الغريزة الأضعف غالباً .

فقد تكون رغبتك متجهة الى حفظ نفسك أكثر من اتجاهها لإنقاذ غريق . لكن القانون الاخلاقى يشير عليك أن تنقذه ، فهو يقوّى الدافع الصائب فينا . ولا شك فى أن الغريزة لا تشجعنا لتقوية نفسها . والذى يقول لنا إن غريزة حب النوع نائمة فأيقظها ، لا يكون هو غريزة حب

النوع ، بل شيء يختلف عنها .

ليس « القانون الأخلاقى » غريزة إذاً !!

(٣) لو كان القانون الأخلاقى واحداً من غرائزنا ، لأمكننا أن نشير الى دافع معيَّن داخلنا ، ونقول عنه إنه صائب دوماً ، ونجده موافقاً للسلوك اللائق . لكننا لم نلحظ هذا ، فلا يوجد دافع فى داخلنا لا ينبِّهنا القانون الأخلاقى أحياناً إلى خطئه !

ومن خطأ الرائ أن نفكر أن بعض غرائزنا صائبة دائماً ــ مثل الأمومة والوطنية ، وأن البعض الآخر ، مثل الحياة الجنسية والحرب ، دوماً مخطئة . وكل ما يمكن أن يُقال هو إن الفرص التى تخطىء فيها غريزة الحياة الجنسية والحرب ، أكثر من تلك التى تخطىء فيها غريزة الأمومة والوطنية . فهناك بعض الحالات التى ينبغى للزوج فيها أن يقوِّى غريزته الجنسية ، والجندى غريزة الحرب ... كما أن هناك حالات أخرى يقود فيها حب الأم لأطفالها ، وحب الرجل لوطنه إلى قضايا غير عادلة بالنسبة للأطفال الآخرين والأوطان الأخرى !

وفى الواقع أننا لا نقدر أن نقول إن الغريزة الفلانية صالحة والغريزة الأخرى خاطئة ، كما أننا لا يمكن أن نقول فى الموسيقى إن النبرة الفلانية خاطئة والنبرة الأخرى صائبة ، فكل نبرة بذاتها صائبة فى مناسبتها ، مخطئة فى غير مناسبتها !

والقانون الأخلاقى ليس غريزة ، لكنه الشيء الذى ينظّم لحن الصواب والخطأ ، وذلك بقيادته للغرائز !

وعلى هذا فمن الخطر أن نتخذ دافعاً من دوافعنا الطبيعية لنتبعه فى كل الظروف مهما كلَّف الأمر ... ، فقد تظن مثلاً أن حب الانسانية دافع صائب دوماً ، لكن حقيقة الواقع أنه ليس كذلك ، فانك إذا لم تلتزم جانب العدل فستجد نفسك تحطمها معتذراً بأن ذلك « لأجل خاطر الانسانية » !

هل « القانون الأخلاق » عُرْف ؟

وكتب إلَّى البعض يقولون :

« أليس القانون الأخلاق هو العرف الذى اصطلح عليه المجتمع ، وقد تلقَّيناه بالتعليم » ؟

والذين يقولون هذا يظنون أن كل ما نتعلمه من آبائنا أو مدرسينا ابتكار ... ولكن الواقع ليس كذلك ، فكلنا تعلمنا جدول الضرب فى المدرسة ، والطفل الذى ينشأ فى الصحراء لا يعرفه ... وجدول الضرب عُرْف اصطلح عليه المجتمع ، ولا يمكن تغييره .

ونحن نتعلم قانون السلوك اللائق من آبائنا ، وكل ما نتعلمه عرف مصطلح عليه ، بعضه يمكن تغييره ، كالسير على الجانب الأيمن من الطريق ، لكن البعض الآخر ، كجدول

الضـرب ، لا يمكـن أن يتغـير .

والآن الى أى نوع ينتمى القانون الاخلاق ؟

هل إلى العُرف الذى يمكن تغييره ؟

أو الى العرف الثابت الذى لا يمكن أن يتغير ؟

هناك سببان يجعلاننا نقرر أنه من نوع جدول الضرب الذى لا يتغير .

السبب الأول : أنه على الرغم من اختلاف المبادىء الأخلاقية بين الأمم المختلفة ، وبين العصور المختلفة ، فان الفرق بسيط ، والقانون الاخلاق الأساسى ثابت فى جميعها ... بينما العرف المصطلح عليه فى السير ونوع الملابس ، يتغير تماماً .

أما السبب الثانى فهو أنك حين تفكر فى الاختلاف بين أخلاقيات أمة وأخرى ، تفكر فى أن أخلاقيات إحداها أسمى من الأخرى ، وأن إحداهما متقدمة . والتقدّم لا يعنى التغيُّر فحسب ، بل التغيُّر الى الأفضل . وإن لم تكن بعض المبادىء الأخلاقية أحسن من البعض الآخر ، فلا معنى إذاً لتفضيل أخلاقيات المتحضّرين عن المتوحشين . والواقع أننا نؤمن أن بعض الأخلاقيات تسمو عن البعض الآخر ، بل إننا نسمّى الذين تقدّموا لتغيير بعض مبادىء بلادهم الأخلاقية الخاطئة « مُصلحين » إذ أنهم فهموا الأخلاقيات

الصحيحة أكثر من معاصريهم . وفى اللحظة التى تفاضل فيها بين مبدأين تُظهر أنك تقيسهما بمقياس خارج عنهما ويختلف عنهما . هذا الذى تقارن به هو « قانون أخلاق » .

وخلاصة القول : إنه إن كانت مبادئك الاخلاقية أصحّ من المبادىء الشيوعية مثلاً ، فلابد من وجود قانون أخلاقى تقارن بينهما به .

وعلى القياس عينه تقول إنه إذا اختلفت معى فى أفكارك عن مدينة نيويورك ، فاننا نستطيع أن نكتشف أيّنا على خطأ وأيّنا على صواب ، ذلك لأن نيويورك بلد حقيقية خارج تفكيرى وتفكيرك ... لكن إن كان كل منا حين يقول : « نيويورك » يعنى : « المدينة التى يتخيلها فى عقله » فكيف يمكن أن يُقال إن أحدنا أصح من الآخر ؟

وهكذا إن قلت عن قانون السلوك اللائق إنه « كل ما تقبله أمة ما » فلا يمكن أن نحكم أن أمة ما أقرب الى الصواب من الأخرى ، كما لا يمكن أن نحكم إن كان العالم يتقدم أو يتأخر !

بين المعرفة والأخلاقيات

لم يميّز البعض بين الاختلاف فى المبادىء الأخلاقية والاختلاف فى معرفة الحقائق . فكتب لى البعض يقولون : « منذ ٣٠٠ سنة

كان الناس فى انكلترا يقتلون السحرة ، فهل هذا ما تسميه السلوك اللائق ؟ » .

والسر اليوم فى أننا لا نقتل السحرة هو أننا لا نؤمن الآن بالسحر ... ولو كنا نؤمن أن بعض من باعوا أنفسهم للشيطان اتخذوا قوات معجزية ، واستخدموها لقتل جيرانهم ، لكنا نحكم بقتلهم !

إذاً لا اختلاف فى المبادىء الأخلاقية هنا ، بل الاختلاف فى المعرفة .

إننا لا نقتل السحَرة اليوم ، لا لأننا تقدَّمنا فى الأخلاق ، ولكن لأننا تقدَّمنا فى المعرفة والعلم ، حتى عرفنا أنه لا سحر هناك .

وليس من التقدُّم الأخلاقى فى شىء أننا نترك السحرة ونحن لا نؤمن بسحرهم !

الحديث الثالث

حقيقة القانون الأخلاقى

قلنا فى نهاية الحديث الاول إن هناك أمرين متميزين فى البشر ، الأول : إنهم مملوءون بفكرة عن سلوك لائق ينبغى أن يسلكوه ، الذى قد تسميه « اللياقة » أو « القانون الطبيعى » . والثانى إنهم لم ينفذوه عملياً .

وقد يبدو هذا طبيعياً جداً للبعض ، لكننى أسمّيه شذوذاً . وقد يقول البعض إن ما أسميه كسراً للقانون الطبيعى ، لا يتعدى أن الانسان غير كامل ، ثم يقولون : ولماذا نتوقع الكمال على الأرض ؟ وهذا جواب سائغ لو كان سؤالى عن مقدار اللوم الذى نضعه على البشر لعدم سلوكهم بلياقة . لكن ليست هذه غايتنا ، فاننا نريد هنا أن نعرف الحقائق . وعليه ، فان هذا السلوك غير الكامل يرينا أن شيئاً ما من ورائه .

اذا أخذت حجراً أو شجرة ، فهو كما هو ، إذ لا معنى للقول إنه ينبغى أن يتغير . قد نقول إن الحجر ليس فى الحجم الصحيح إذا كنت تريد استخدامه فى البناء ، أو تقول إن الشجرة رديئة لأنها

لا تعطيك الظل المطلوب . لكن كل ما يمكن أن تقوله هو إن الحجر (أو الشجرة) لا يوافق غرضك منه ، ولكنك لا تُنْحى عليه باللائمة ! وأنت تعلم أن الشجرة تحت عوامل التربة والطقس ما كان يمكن أن تتغير . فما تقوله إن شجرة « رديئة » ما هو إلا أنها أطاعت نواميس طبيعتها كما تفعل شجرة « جيدة » .

وما نسميه بنواميس الطبيعة ــ كتأثير الجو على الشجرة ــ ربما لا يكون نواميس بمعنى الكلمة الدقيق ، بل مجرد تعبير . فعندما نقول إن الأحجار الساقطة تتبع قانون الجاذبية ، نعنى أن القانون هو « ما تفعله الحجارة دائماً » ... فأنت لا تظن طبعاً أنك حين تلقى حجراً أنه يذكر فجأة أنه ينبغى تبعاً لناموسه أن يسقط ! بل تعنى أنه يسقط وكفى ... أى أنه ليس هناك ما هو أكثر ما تراه ، فما يحدث هو الناموس نفسه . فالنواميس الطبيعية لا تعنى أكثر « مما تفعله الطبيعة فى الواقع » .

لكن الأمر ليس كذلك مع قانون الطبيعة الانسانية ، « فالقانون الطبيعى » لا يعنى « ما يفعله البشر فى الواقع » إذ أن كثيرين منهم لا يطيعونه أبداً ، ولا يوجد منهم من يطيعه تماماً . فإن كان قانون الجاذبية يريك ما يفعله الحجر إذا سقط ، فان قانون الطبيعة الإنسانية يريك ما ينبغى أن يفعله البشر لكنهم لا يفعلونه !

انك حين تتعامل مع البشر تلاحظ شيئاً وراء الحقائق الواقعة

نفسها وأعلى منها ، فعندك الحقائق (ما يفعله الناس) وعندك شيء آخر (كيف ينبغى أن يفعلوه) . ففى العالم الخارجى لا توجد إلا حقائق مجردة ، فالالكترونات والذرات تسير على نهج واحد ، تتبعه نتائج واحدة ، وقد* يكون أن هذا كل ما هناك . لكن الناس يتصرفون بطريقة ما ، غير أن هذا ليس كل شيء ، إذ أنك تلاحظ كل الوقت أنهم ينبغى أن يتصرفوا بطريقة أخرى .

هذا شيء غريب ، حتى أننا قد نحاول أن نهرب منه . فقد نحاول أن نبرهن أن السلوك غير اللائق هو الذى لا يوافقنا ، لكن ليس هذا حقاً ! فالرجل الذى يجلس فى ركن الديوان المريح فى القطار يضايقك لأنه سبقك اليه ، مثلما يضايقك الرجل الذى ينتهز فرصة انشغالك ويجلس فيه بدلك ، لكنك تلوم الثانى ولا تلوم الأول !! كما أننى لا أغتاظ من رجل يصدمنى عرضاً ، بينما أغتاظ من رجل يريد أن يصدمنى ولو لم يفعل ، مع أن الأول فعل ما لم يفعله الثانى !! بل قد يكون العكس ، ففى بعض الأحيان يكون السلوك الذى أسميه « خاطئاً » نافعاً لى ، ففى الحرب يجد كل من المتحاربين بعض الخونة نافعين له ، ورغم مكافأتهم مالياً ، إلا أنهم يحسبون خونة انتهازيين !! وهكذا ترى أن القانون الاخلاقى ليس « ما ينفعنا » دائماً .

---

* ليس هذا كل شيء ، لكن الى ما وصلنا اليه من نقاش نقول « قد يكون »

وبالنسبة لأنفسنا ، لا يكون السلوك اللائق مجزياً لنا دوماً .. فقد تقنع بـ ٣٠ قرشا بدل ٣ جنيهات ، وقد تقول الحق رغم أنه يضرك ، وذلك طاعة للسلوك الائق .

ويقول بعض الناس إنه رغم أن السلوك اللائق لا يجازى صاحبه فى اللحظة نفسها ، إلا أنه يجازى الجنس البشرى كمجموع . والناس يدركون أنه لا يمكن أن يكون هناك أمان وسعادة فى المجتمع إلا إذا تصرف كل فرد فيه بأمانة وعدل ولطف ، وهذه حقيقة هامة جداً ، على أننا نفشل لو حاولنا تعليل شعورنا هذا . فاذا سألنا : « لماذا يجب أن أكون عادلاً ؟ » نجيب « لصالح المجتمع » ! فنسأل : « وماذا يهمنى من المجتمع إذا لم ينفعنى ذلك شخصياً ؟ » فنجيب : « لأنك ينبغى أن تكون عادلاً » .. فنعود الى حيث بدأنا . فأنت تقول حقيقة ، لكنك لا تقدر أن تزيد عليها شيئاً .

إذا سأل إنسان عن سبب لعب كرة القدم ، فمن الخطأ أن تجيب : « لكى نصيب المرمى » لأن إصابة المرمى هو اللعبة نفسها ، وكأنك تقول إن كرة القدم هى كرة القدم ، ولكنك لم تزد شيئاً .

وعلى القياس عينه إذا سأل أحدهم عن سبب السلوك بلياقة ، فليس صحيحاً أن تجيب : « لخير المجتمع » إذ أن خير المجتمع بالعدل جزء من السلوك اللائق ، وكأنك تقول إن السلوك اللائق هو السلوك اللائق ، وكأنك عُدت الى

الحقيقة « ينبغى أن تكون عادلاً » !!

ينبغى أن يكون الناس عادلين ... ليس أن الناس عادلون أو أنهم يحبون أن يكونوا هكذا ، بل أنهم ينبغى أن يكونوا كذلك . فالقانون الاخلاق ليس حقيقة مجردة عن السلوك الإنسانى ، كناموس الجاذبية ! كما أن القانون الأخلاق ليس خيالاً ، إذ أننا لا نقدر أن نهمله ونتناساه ، وإلا فان اعتقادنا عن الناس يصبح هراء ... كما أن القانون الاخلاق ليس ما نريده مناسبا لنا ، فقد نحسب المناسب لنا غير صائب أحياناً .

الناموس الاخلاق إذاً حقيقة واقعية ، غير عادية ، ووراءه شيء أعلى منه ... لم نخلقه نحن ، لكنه يؤثر فينا !

الحديث الرابع

كيف وجد الكون ؟

تلخيصاً لما سبق نقول : قد لا يكون « القانون الطبيعى » اكثر من تعبير ، فحين نقول إن الطبيعة تسير وفق نواميس ثابتة نعنى أن هذا ما تفعله الطبيعة . لكن الأمر يختلف فى حالة الانسان ، فقانون الطبيعة الانسانية يقف فوق الحقائق الواقعة وأعلى منها ، إذ نرى بجوار ما يجرى كل يوم قانوناً لم نبتكره نحن ، لكننا نحسّ بضرورة اتّباعه !

ونريد الآن أن نرى أثر هذا فى أفهامنا عن الكون الذى نعيش فيه .

كيف وُجد الكون !

هناك رأيان غالبان فى هذا ..

الرأى الأول : *المذهب المادى* : وأصحابه يظنون أن المادة والفراغ كانا موجودين ومستمرين ، ولو أن أحداً لا يعلم كيف كان ذلك ... والمادة بطريقة خاصة مضبوطة أنتجت بطريق الصدفة

المحض مخلوقات مثلنا قادرة على التفكير . وبطريق الصدفة النادرة أيضاً صدم شيء ما شمسنا فأوجد الكواكب السيّارة . وفي صدفة ثالثة من آلاف المصادفات ، نشأت على إحدى هذه الكواكب الكيماويات الملائمة ودرجة الحرارة الموافقة للحياة ، وهكذا وُجد أحياء ، تطوروا عن طريق الصدفة الى مخلوقات مثلنا !

الرأى الثانى : *المذهب الدينى :* وأصحابه يعتقدون أن وراء المادة عقلاً مفكراً ، له شعور وقصد ويفاضل بين الأشياء . وقد خلق الكون لأغراض عنده ، أحدها رغبته فى أن ينتج مخلوقات مفكرة مثله .

والعلم لا يقدر أن يعرف أى الرأيين هو الصحيح . فالعلم كما نعلم يعمل بالتجربة ، وكل قضية علمية تحمل فى جوهرها قولاً كهذا : « أضفنا من المادة كذا فى درجة الحرارة كذا على مادة أخرى ، فأنتجت كذا وكذا » . والعلم لا يصل الى ما وراء المادة لأنه لا يقدر أن يُجرى تجاربه عليها ! والعلماء لا يقدرون أن يجزموا بوجود عقل مفكر أو عدم وجوده علمياً ، إنما يتشدَّق بعدم وجوده أنصاف العلماء الذين يعرفون بعض المعرفة .

وحتى لو وصل العلم إلى معرفة كل شيء فى الكون ، فانه يعجز عن معرفة قصد الكون وسرّ وجوده !

كيف نعرف ؟

فى العالم شىء واحد يمكن أن نعرف عن حقيقته معرفة اكثر من المعرفة التى نراها واضحة من ظاهره ... وهذا الشىء هو الانسان !

وهنا يمكن أن نتكلم عن معرفة داخلية — فنرى أن الناس وجدوا أنفسهم تحت قانون أخلاق لم يضعوه هم ، لكنهم لا يقدرون أن يهملوه .

وأرجو أن نلاحظ أن أى شخص يحاول دراسة الانسان من الخارج بمراقبة عمله ، دون أن يعرف لغته ليتكلم معه ... هذا الشخص لا يمكن أن يلحظ القانون الأخلاق . وكيف يستطيع ذلك ، وهو إذ يراقب أعمالنا إنما يرى ما نفعل ، بينما القانون الأخلاق هو ما ينبغى لنا أن نفعله ؟! غير أنه من حسن الحظ أننا نستطيع أن نسبر غور الانسان ونعرف ما بداخله حين نتحدث ونتناقش معه ... ومن خلال هذا الحديث والنقاش يظهر لنا القانون الأخلاق واضحاً !

ونحن هنا نواجه مشكلة : هل وُجد الكون بدون قصد ؟ أم أن قوة أوجدته ؟؟ ... إننا لا نقدر أن ندرك هذه القوة — إن

وُجدت ـــ بالحقائق ، لأن هذه القوة تخلق الحقائق ! وكما أن المهندس الذى صمَّم البيت وأشرف على بنائه لا يمكن أن يكون جداراً فيه ، هكذا لا يمكن لهذه القوة التى خلقت الكون أن تُرينا نفسها كحقيقة ملموسة داخل الكون ، لأنها خارج الكون ومتسلطة عليه .

والسبيل الوحيد الذى به ترينا هذه القوة نفسها هو أن تكون كمؤثر أو آمر لنا لنسلك بطريقة معلومة ... وهذا ما وجدناه فعلاً داخل نفوسنا !

إذا وجدت رجلاً فى زىّ أزرق يسير فى الشوارع ، ويترك حزمة أوراق فى كل منزل ، فاننى أظن أنها خطابات ، لأنه كلما يترك لى حزمة مماثلة أجد أنها تحوى خطابات ... ومع أننى لم أر كل الخطابات الأخرى التى وصلت للآخرين ـــ لأنها لم تُرسل الىّ ـــ لكنى أفهمها بالحُزم التى أُراها .

وقياساً على موضوعنا نقول إن الحزمة الوحيدة التى أراها هى الإنسان ـــ وخاصة نفسى ـــ وأرى أننى تحت قانون ، وأن شخصاً أو شيئاً يريدنى أن أتصرف بطريقة ما . وكما أرى الحجر يخضع لناموس الجاذبية ، هكذا أرى أن القوة الموجِّهة لى تطلب أن أتصرف بالصواب ... وكما أن القانون الذى يتحكم فى الحجر هو من خارج الحجر ، هكذا القانون الذى يوجّهنى يختلف عن نفسى . ولابد فى الحالتين من قوة تقف من وراء ما يحدث كمرشدة أو مديرة للكون .

وخلاصة ما وصلنا اليه أن « شيئاً » يدير الكون ، ويظهر فىّ كناموس يأمرنى أن أفعل الصواب ، ويُشعرنى بالمسئولية وعدم الارتياح حين أفعل الخطأ . هذا الشىء أقرب الى العقل ، لأن كل ما عداه « مادة » والمادة لا تسنّ ناموساً .

هذا الشىء عاقل ، والى ما وصلناه من نقاش نقول إنه عاقل ، ولكنه أبعد قليلاً عن أن يكون شخصاً ..

رأى ثالث : لم نذكر فى حديثنا السالف إلا المذهب المادى والمذهب الدينى . لكن هناك مذهباً ثالثاً هو « مذهب النشؤ الخلاّق » الذى يتزعمه الفيلسوف برجسون .

ومعتنقو هذا المذهب يقولون إن الاختلافات البسيطة التى امتدّت بها الحياة فى هذا الكوكب ، من أوضع الحالات الى الانسان ، لا ترجع الى الصدفة ، بل الى مجهود قوة حية ذات قصد معين .

وحين يقول أتباع برجسون هكذا ، نسأل : « هل يقصدون [بالقوة الحية] عقلاً ؟ » .

فإن أجابوا بالإيجاب نقول : إن عقلا يأتى بالحياة ويقود الى الكمال إنما هو الله ، ويكون مذهب أتباع برجسون كالمذهب الدينى .

وإن أجابوا بالنفى فاننا نسأل : ما هو معنى أن شيئاً بدون عقل يجاهد وله قصد ؟ !!

وهذا فى نظرى يهدم مذهبهم .

وأحسب أن الناس الذين ينحازون الى مذهب النشؤ الخلاّق إنما يعتنقونه لأنه يريحهم من جهة الإيمان بالله ، دون أن يحمّلهم مسئوليات ذلك . فعندما لا تريد أن تعتقد أن الكون ذرات متراقصة ، فمن الخير أن تؤمن بالقوة التى استمرت هذه القرون الطويلة تسيّر هذا الكون ... لكنك إذا عملت عملاً دنيئاً ، فان هذه القوة العمياء التى بلا عقل وبلا أخلاق سوف لا تقلقك ، وسوف لا تؤرق ضميرك .

« فالقوة الحية » إله « مستأنس » لا يحسن ولا يسىء !!

فهل هذا أعظم نتاج أخرجه فكر للعالم ؟!!

الحديث الخامس

من وراء الكون ؟

هنا أرانى مضطراً بأن أسلّم أن شيئاً أو شخصاً يقترب نحونا من وراء الكون المادى .

وقد يقول البعض إنه لا داعى للرجوع الى ما قاله الأقدمون فى الحديث عن الدين .

والى هؤلاء أذكر حقائق ثلاث :

أولاً : اننا نبغى التقدم ، والتقدم معناه القرب الى المكان الذى ننشده — على أن أى انحراف عن الطريق لا يوصلك الى هدفك مهما تقدمت فيه . فإن كنت فى طريق خاطىء فلن تحرز التقدم المنشود إلى إذا درْتَ ورجعت الى الطريق الصحيح . وكلما أسرعت بالرجوع كان تقدمك أسرع ... وكلنا جربنا ذلك .

ولا يمكن أن يتقدم إنسان لا يقر أنه فى الطريق الخاطىء . ولو نظرت الى حالة العالم الحاضرة لرأيت أنه فى الطريق الخاطىء ، ولا علاج له "لا" الرجوع الى وراء ، الى النقطة التى انحرف منها ، فهى

أقرب سبيل الى التقدم !

ثانياً : ان حديثنا الآن ليس حديثاً دينياً ، فنحن لم نتكلم عن إله أى ديانة ــ وخاصة المسيحية ــ ولكننا حاولنا أن نعرف شيئاً عن هذا « الشخص » الذى يقف وراء الكون ، وعندنا برهانان عنه ، واحد خارجى والآخر داخلى :

الأول : الكون الذى صنعه ــ ولا يسعنا ألا أن نقر بأنه فنان . فالكون قطعة فنية جميلة ــ على أن الكون يرينا أنه غير رحيم ولا يصادق الناس ، فالكون مخيف خطير !

الثانى : إنه وضع القانون الأخلاقى داخلنا ، وهذا برهان أفضل لأنه داخلى ، فأنت تعرف شيئاً عن الله من القانون الأخلاقى أكثر مما تعرف عنه من الكون الذى خلقه ... تماماً كما تعرف شخصاً من حديثه أفضل مما تعرف عنه لو رأيت منزلاً بناه !

وهكذا نرى من البرهان الثانى أن الكائن الذى وراء الكون يحب الصواب ، وبهذا نوافق على ما تقوله المسيحية وبعض الأديان الأخرى : إن الله « صالح » .

على أن القانون الأخلاقى لا يرينا صلاح الله بمعنى التساهل ، فالقانون الأخلاقى لا تساهُل فيه ، لأنه يأمرك أن تفعل الصواب مهما كان صعباً شائكاً . وإن كان الله مثل القانون الأخلاقى ، فانه لا يكون متساهلاً . ولا معنى هنا أن نقول إن صلاح الله يعنى

أنه غفور ، لأن غفرانه يعنى أنه شخص ، وهذا ما لم نصل اليه فى نقاشنا .

فان كانت هذه القوة عقلاً بلا شخصية ، فلا معنى أن نطلب منها أن تسامحنا أو تجيزنا ، لأنها فى هذه الحالة تكون مثل جدول الضرب الذى لا نرجوه تسامحاً إذا أخطأنا فى الحساب !

وواضح أن هذه القوة تكره ما نفعله لأن أكثره خطأ ، ونحن نجدد العداء معها كل يوم ، ولا أمل فى إصلاح أمرنا ، فنحن بلا رجاء !

وحتى إذا سادت الكون قوة أخرى شريرة فسنكون أيضاً بلا رجاء !

ونحن لا نقدر أن نعيش مع هذه القوة ، ولا نقدر أن نعيش بدونها . نريد أن نتخلص منها . ونريد أن نقترب اليها ! فيها راحتنا وفيها ذعرنا ! وهى حليفتنا لكننا صرنا أعداء لها .

فالصلاح إذاً قد يكون الأمان الأعظم أو الخطر الأعظم ، وذلك حسب موقفنا منه ، وقد كان موقفنا خاطئاً !

ثالثاً : إن المسيحية ستظل بلا معنى بالنسبة لك ، ما لم تصل الى الحقائق التى وصلنا اليها الآن ، فالمسيحية تطلب من الناس أن يتوبوا وتعدهم بالغفران ، وهى لهذا ستكون بلا معنى لمن يظنون

أنهم فى غير حاجة الى التوبة أو المغفرة . ولكنك ستصغى الى ما تقوله المسيحية بعد أن رأيت أن هناك القانون الأخلاقى ، وأن وراءه قوة ، وأنك كسرت هذا القانون فأصبحت فى عداء مع تلك القوة . ويمكنك بعد رؤية موقفك اليائس أن تفهم ما يقوله المسيحيون ... فهم يشرحون كيف وصلنا الى كراهية هذه القوة رغم حبنا لها ! كما أنهم يوضحون كيف أن الله عقل وشخص يقف من وراء القانون الأخلاقى ، ويظهرون لك كيف أن مطاليب هذا القانون قد كملت ... أى كيف أصبح الله إنساناً ليخلص الناس من غضب الله .

والآن تعال نرى ما يعتقده المسيحيون ..

الجزء الثانى

ما يؤمن به المسيحيون

الحديث الأول

اللـــــه

لا يعتقد المسيحيون أن كل الديانات مخطئة ، بل يؤمنون أن بكل ديانة شيئاً من الحق ، وهم فى هذا يخالفون الكافرين بكل دين ، الذين يعتقدون أن كل الديانات خاطئة .

على أن المسيحيين يعتقدون أن هناك حلاً واحداً لمشاكل الحياة ، وكل الحلول عداه مخطئة ... لكن الحلول المختلفة تختلف قرباً وبُعداً عن الحل الصحيح .

وينقسم العالم الى معسكرين أحدهما كبير يؤمن بوجود إله أو آلهة ، وآخر صغير لا يؤمن بوجود إله . والمسيحية تقف مع المعسكر الأكبر الذى ينضم فيه المسلمون والهندوسيون ، ضد معسكر المفكرين الماديين .

وهناك أسباب كثيرة تدفعنا للاعتقاد بوجود إله ، أذكر واحداً منها : لنفرض عدم وجود عقل وراء الكون ، فلا يكون هناك خالق لأفكارنا ، ويكون أن خلايا الدماغ تحت عوامل كيماوية أو

فسيولوجية خاصة رتَّبت نفسها ، وأنتجت ما أسميه تفكيراً . ولا يمكننى أن أؤمن بصدق تفكير كهذا ، كما لا يمكننى أن أؤمن ، أن طرطشة كوب من اللبن ترسم خريطة للقاهرة يُعتمد عليها .. وإذا كنت لا أؤمن بصدق تفكيرى ولا أعتمد عليه ، فاننى بالتالى لا أؤمن بصدق مجادلات هذا الفكر ، ولا يمكننى به أن أكفر أو أؤمن بالله . فما لم أؤمن بالله لا أؤمن بالفكر ... إذاً لا يمكننى أن أستخدم فكرى لأكفر بالله !!

وينقسم المعسكر الأكبر (معسكر المؤمنين بالله) الى قسمين :

يُسمَّى القسم الأول « أنصار مذهب وحدة الكون » وأصحابه يعتقدون أن الإنسان كلما نما فى الحكمة ، وكلما اقترب من الفكر الإلهى اعتقد بعدم وجود شيء يسمى خطأ أو صواباً ، واعتقد أن اعتبار شيء ما أنه خطأ أو صواب هو مجرد وجهة نظر ... فقد تسمى السرطان شراً لأنه يقتل الناس ، لكنك قد تسمى الجراح الذى يستأصله شريراً لأنه يقتل السرطان ... والمسألة كلها اختلاف وجهات نظر ! فالله فى نظر أصحاب هذا المذهب لا يقيم وزنا للخطأ والصواب . ويعتنق هذا المذهب الفيلسوف هيجل والهندوسيون .

والقسم الثانى يعتقد أن الله صالح ، وأنه يفاضل بين الأشياء ، فيحب المحبة ويكره العداوة ، وهو يطلب أن نسير فى طريق ونترك

اخر . ويعتنق هذا المذهب اليهود والمسيحيون والمسلمون .

وبين هذين القسمين اختلاف آخر ـــ فأصحاب مذهب وحدة الكون يعتقدون أن الله يحيي الكون ، كما تحيى أنت جسدك ، وأن الكون هو الله ، وأن كل جزء فى الكون جزء منه .

اما المسيحيون فيعتقدون أن الله صنع الكون كما يرسم رسام صورة ، وكما يضع موسيقى لحناً . لكن الرسام ليس هو الصورة والموسيقى ليس هو اللحن . قد تقول إنه « وضع نفسه فى صورة » لكن كل ما تعنيه أن جمالها وروعتها نتيجة عمق تفكيره ، لكن لا يمكن أن تكون الصورة فكره أو يده !!

هذان الاختلافان بين مذهب وحدة الكون والمسيحية مرتبطان ، حتى أنك إذا تساهلت فى قبول فكرة بُعد الله عن الخير والشر ، فانك بالتالى تتساهل فى قبول فكرتهم القائلة إن الله جزء من الكون . واذا رفضت فكرتهم عن الخير والشر ، فانك بالتبعية سترفض قولهم إن الله جزء من الكون . وعلى هذا فانك لابد موافق على أن الله منفصل عن العالم ، وعلى أن بعض ما يحدث لا يوافق إرادته .

ان المسيحية تؤمن أن الله عمل الفراغ والوقت ، والحرارة والبرد ، والألوان والحيوانات وكل شيء بارادته . لكنها تؤمن أيضاً أن أشياء كثيرة سارت فى طريق خاطيء لا يرضاه هو ، ولازال يطلب أن تُصحَّح الأوضاع .

على أن هذا الاعتقاد يسوق إلينا مشكلة كبيرة هى أنه « إن كان الله صالحاً وعمل العالم ، فلماذا سار العالم فى طريق خاطىء ؟ » .

وكثيرون من الكافرين بالله يقولون ان عدم اعتقادنا بقوة عاقلة مفكرة وراء الكون تنجينا من مجادلات لا طائل تحتها ، فان كل ما يسوقه المسيحيون من أدلة لإثبات وجهة نظرهم تعقيد لا فائدة فيه !

وكل دليل هؤلاء ضد الايمان بالله أن الكون قاس ظالم .

لكن من أين جاءتهم فكرة العدل والظلم ؟

ان المرء لا يقول إن الخط مائل ، مالم يفكر فى خط مستقيم ... فإن كان الكون قاسياً وأنا فيه ، فكيف أجد نفسى ثائراً ضده ؟ وعلى أى مقياس قستُ ظلمه ؟؟

قد تقول إن هذه فكرة شخصية عندك ، لكن هذا لا يؤثر شيئاً فى بحثنا ، فانه يكفى أن تشعر أن الكون ظالم ! ففى محاولاتك إثبات عدم وجود الله تثبت أن فكرة العدل صحيحة !

وهكذا ترى بساطة فلسفة الكافرين بالله ، فلو كان الكون بلا معنى ما كنا نكتشف أنه كذلك ... تماماً كما أننا ما كنا نكتشف أن الكون مظلم لو لم يكن هناك نور ، فبدون النور تصير كلمة « ظلام » بلا معنى !!

الحديث الثانى

هل فى العالم قوتان ؟

فلسفة الكافرين بالله بسيطة جداً كما رأينا فى الحديث السابق ، وتماثلها تماماً فى بساطتها فلسفة من يقولون إن الله صالح ، وإن كل شيء بخير — تاركين مشكلة الخطية والجحيم والشيطان والفداء ! والفلسفتان فى نظرى فلسفتا أطفال !

ولا معنى أن تطلب فلسفة بسيطة ، لأن الأشياء الحقيقية ليست بسيطة ! فالمنضدة التى أمامى تبدو بسيطة ، لكن العلماء لا يقرّون ذلك ، فذرّاتها فى حركة مستمرة !! وانعكاس الأضواء عليها وعلى عينى ... ثم تأثير ذلك على أعصاب النظر فى عقلى ... وهكذا ترى أن المنضدة البسيطة قادت الى مشاكل معقدة !

والطفل الذى يصلى يبدو بسيطاً ، فإن سألت عما يقول قادك ذلك الى مشاكل فكرية .

ان الحقائق ليست بسيطة ، كما أنها ليست مرتبة بل متضاربة ! فالأرض مثلا إحدى الكواكب السيارة التى تدور حول الشمس .

وأنت تتوقع بالطبع أن كل الكواكب خُلقت لتدور على مسافات مضبوطة ، تزداد أو تنقص ، وأن حجمها يصغر أو يكبر تبعاً لبعدها أو قربها من الشمس . ولا تجد سبباً معقولاً لذلك !

الحقائق إذاً شيء ليس فى الحسبان ، وهذا ما جعلنى أؤمن بالمسيحية ، فقد قدمَتْ لنا الكون الذى طالما أردناه ، حتى لكأننا أوجدناه ! لكنه فى الواقع شيء لا يستطيع أحد أن يوجده . فلندَعْ جانباً أفكار الأطفال التى تعطى ردوداً بسيطة ، فلم يكن جواب المشاكل بسيطاً يوماً من الأيام !

مشـــكلـة ...

والمشكلة التى تعترضنا هى أننا فى عالم يحوى شراً كثيراً ، ويبدو فى ظاهره بلا معنى ، لكنه يحوى مخلوقات مثلنا تعلم أنه شرير وبلا معنى ! ولا يوجد سوى حلين لهذه المشكلة :

الحل الأول هو الحل المسيحى الذى يقول إن هذا العالم صالح لكنه سار فى طريق خاطىء ، وهو يذكر الصلاح الذى عرفه قبلاً .

والحل الثانى وهو حل « المذهب الثنائى » وأصحابه يقولون إن هناك قوتين خلف كل شيء : قوة صالحة وقوة شريرة ، وقد اتخذتا العالم ميداناً للحرب والتطاحن .

صحة المذهب الثنائى ؟؟

فكرة المذهب الثنائى أفضل فكرة موجودة بعيداً عن المسيحية ، لكن لها أخطاءها ... فأصحابها يقولون إن القوتين الصالحة والشريرة ، مستقلتان وأزليتان ، ولم تخلق أحداهما الأخرى ، وكل منهما تعتقد أنها صائبة وأن الأخرى مخطئة . احداهما تحب الكراهية والقسوة ، والأخرى تحب المحبة والرحمة ، وكلتاهما تؤيدان ما تحبان .

وهنا يعترضنا سؤال :

ماذا نقصد من وصف أحد القوتين بأنها صالحة ، وتسمية الأخرى بأنها شريرة ؟

والجواب أننا إما أن نفضل إحداهما اعتباطاً — كما نفضل أحد المشروبات على الآخر .

وإما أن يكون السبب أننا نحسب إحداهما مخطئة فى تسمية نفسها صائبة .

فإن كنا نفاضل بينهما اعتباطا ، فلنكف عن أن نقول عن شيء إنه خطأ أو صواب ، لأن الصواب هو « ما ينبغى أن تفعله بغض النظر عما تميل إليه ، ولكن إن كان الصواب هو ما تؤيده بمجرد التخمين وبدون سبب ، فلا يكون الصواب صواباً .

لابد إذاً من أن نقول إن إحداهما شريرة ، لأنها شريرة فعلا ، ولأنها تخطىء إن حسبت نفسها صائبة .

وفى اللحظة التى تقر فيها أن إحدى القوتين شريرة فانك تضيف شيئاً ثالثاً علاوة على القوتين ، وذلك الذى تضيفه هو المقياس الذى قارنتهما به ، ففضَّلت واحدة عن الأخرى . ولابد أن يكون هذا المقياس أو بالحرى واضعه هو الإله الحقيقى . وما أطلقت صفة الصواب على القوة الصائبة إلا لأنها فى موقف صائب من الله ، بينما الأخرى فى موقف مخطىء منه !

ونستطيع أن نرى خطأ المذهب الثنائى من ناحية أخرى ــ فلو كان المذهب صحيحاً لكانت القوة الشريرة تعمل الشر من أجل الشر نفسه ... لكن اختبارنا لا يرينا أحداً يفعل الشر من أجل الشر نفسه ! .. فعلى سبيل المثال : قد يكون الشخص القاسى قاسياً لشذوذ جنسى فيه ، فيقسو ليحصل على اللذة . أو قد يقسو ليحصل على مال أو مركز أو قوة ... وهذه الأشياء فى حد ذاتها حسنة ، لو حسُن استخدامها ، ولكن الشر فيها هو فى الطريقة الخاطئة لتحصيلها . فالشر أو الخطأ فى ذاته هو السبيل الخاطىء للحصول على شىء حسن ، لكن الشر لا يكون من أجل ذاته !

أما الصواب أو الخير فيكون من أجل ذاته . فأنت تحنو حين لا تريد ذلك ، لأن الحنان صائب ... فالصواب صواب ، أما الخطأ

والشر فهما صواب مُفسَد وخير تالف !

فلكى تكون شريراً لابد لك من أمور صالحة تريد الحصول عليها عن طريق خاطىء ، ولابد من دوافع صالحة فى أصلها لكى تفسدها وتجعلها شريرة . ولو كان الانسان شريراً فى أصله ما كان يمكنه أن يمدّ نفسه برغبات ودوافع صالحة ليفسدها ، إذ أنه لابد أن يحصل على هذه الدوافع الصالحة من قوة صالحة ... فالشرير جزء من العالم الصالح الذى خلقته القوة الصالحة .

ولكى نبسط ما قلناه نقول : لكى يكون المرء شريراً ، لابد له من حياة وعقل وارادة ، تلك التى هى فى ذاتها صالحة ، ولابد للحصول عليها من قوة صالحة .

هل رأيت إذاً لماذا تقول المسيحية إن الشيطان ملاك ساقط ؟! أن الشرير طفيلى وليس أصيلاً ... والشخص الشرير أخذ القوة التى تساعده على الحياة من قوة صالحة ... وكل ما يمكنه من عمل الشر صالح فى ذاته ــ فالعزم والتصميم ، والذكاء والحياة كلها صالحة .

وهكذا نرى أن المذهب الثنائى لا سند واقعى له !

لكن المسيحية قريبة من المذهب الثنائى اكثر مما يعتقد الناس ، فهى تتحدث عن قوة شريرة هى سبب المرض والموت والخطية ... لكنها تعتقد أن هذه القوة مخلوقة من الله ، وقد كانت صالحة حين خُلقت ، لكنها أخطأت .

والمسيحية تؤيّد المذهب الثنائى فى أن العالم فى حرب ، لكنها لا تظن أنها حرب بين عدوين مستقلين ، بل تعتقد أنها حرب أهلية وأعلان عصيان ، وأننا نعيش فى جزء من الكون يحتله المتمرد !

والمسيحية تحكى كيف جاء الملك الصالح إلى هذه الأرض ليدعونا لحملة حرب . وحين تذهب الى الكنيسة تسمع أسراراً من أصدقائك المحاربين ، ولهذا فان الشيطان يعمل جاهداً ليبعدك عن الكنيسة ، فيخدعك عن طريق الكسل والشك . ومع أننا لا نقدر أن نَصِفَ الشيطان ، إلا أنه موجود !

الحديث الثالث

كيف وجدت القوة الشريرة ؟

يؤمن المسيحيون أن قوة شريرة جعلت نفسها رئيسة لهذا العالم فى الوقت الحاضر ، وهذا يقودنا للسؤال : هل حدث هذا حسب إرادة الله أم ضدها ؟ فإن كان بحسبها ، فكم يكون الله غريباً !! وإن لم يكن ، فأين قوته التى تكفل له السيطرة على العالم ؟!

ولكن أى إنسان له سلطان يعلم كيف يكون أمر ما حسب إرادته من جهة ، وضدها من جهة أخرى ... فالأم مثلا تطلب من أولادها أن يرّتبوا غرفتهم ، لكنها تدخل مرة لتجدها غير مرتبة ! ويكون هذا مخالفاً لأرادتها ... لكن من جانب آخر نرى أن إرادتها تركت أولادها أحراراً فكانوا غير مرتبين . والأمر عينه يحدث مع أى فرقة عسكرية ، أو تجارة ، أو مدرسة ، فحين يُترك شىء ما اختيارياً ، لا يعمله نصف الناس ، ويكون هذا ضد إرادة الشخص المسئول ، لكن إرادة الشخص المسئول جعلته ممكناً !

وقد خلق الله الناس بارادة حرة تكفل لهم عمل الصواب ، ولكننى لا أتخيل إنساناً حر الارادة لا يقدر أن يعمل الخطأ ! فالحرية

تعطى إمكانية عمل الخير أو الشر على السواء .

الارادة الحرة مخاطرة

ولكن لماذا أعطاهم الله إرادة حرة ؟!

الجواب أنه على الرغم من أن الإرادة الحرّة جعلت عمل الشر ممكناً ، إلا أنها السبيل الوحيد لعمل الخير ، فإن عالماً ميكانيكياً يعمل فيه الناس كالآلات غير جدير بأن يُخلق ، والسعادة التى ينشدها الله هى فى أن يرى البشر يحبونه ويطيعونه بمحض إرادتهم .

وهنا نسمع السؤال :

« إن كان الله قد خلق الناس أحراراً فى الإرادة ، فلماذا خلقهم من مادة فاسدة عملت الشر ؟ »

وجوابنا على ذلك ان الله خلق البشر من أحسن المواد ، فهم الأكثر حرية وقوة وذكاء من سائر المخلوقات ـــ ولكن هذه قد تقودهم الى الخير الأسمى أو الى الشر الأردأ ، وكلما كان الإنسان عبقرياً نابغاً ، تعرَّض للخير الأكبر أو الشر الأكثر .

كيف وُجدت قوة شريرة ؟

فى اللحظة التى يكون لك فيها ذات ، تكون لك فرصة أن تضع هذه الذات أولاً وقبل كل شيء ـــ أى أنك تحب أن تكون مركزاً

لكل شيء — أى أنك تريد أن تكون إلهاً .

وقد كانت هذه خطية الشيطان ، وهى التى علّمها للجنس البشرى ، حين قال لأبوينا الأولين : « تصيران كالله » — وكأنهما قد خلقا نفسيهما ، فيصبحان سيدين ، ويُوجِدان لنفسيهما اللذة بعيداً عن الله . وكان من نتائج هذه المحاولة الفاشلة أن حدث ما نسمّية الفاقة والحرب والعهارة ، وبقية القصة المفزعة التى نرى فيها الإنسان محاولاً أن يصنع لنفسه إلهاً يجعله سعيداً ... أو يجعل من نفسه إلهاً لنفسه .

ولا يمكن للانسان أن ينجح بعيداً عن الله ، لأن الله ابتكره وخلقه كما يبتكر إنسان آلة . فالسيارة تسير بالبنزين ولا تسير بمادة غيره ، وقد رسم الله للآلة الإنسانية أن يكون « هو » وقودها ، فهو غذاؤها الذى تعيش عليه ، ووقودها الذى تسير به . فلا معنى لسعينا وراء السعادة بعيداً عن الدين ... والله لا يعطينا سعادة وسلاماً بعيداً عنه ، لأنه لا سعادة فى البُعد عن الله .

والتاريخ خير دليل وبرهان على ما نقوله ، فأن قوى بُذلت ، وحضارة بُنيت ، وقوانين وُضعت ... ولكن هذه هوت واحدة إثر أخرى وضاعت هباء ، وهوى العالم بعدها الى حضيض الفاقة والهلاك . والسبب : أن هذه كلها بُنيت بعيداً عن الله . لقد سارت آلة العالم بضع خطوات بنجاح لكنها سرعان ما تحطمت ، لأن

الوقود الذى سارت به لم يكن مناسباً .. وكان هذا خدعة الشيطان !!

ماذا فعل الله ؟

فعل الله الكثير ...

أولاً : ترك الله الضمير لنا ... الضمير الذى يُشعرنا بالصواب والخطأ . ومنذ بدء التاريخ حاول الكثيرون أن يطيعوه ، لكن أحداً منهم لم ينجح تماماً .

ثم أرسل للبشر ما أسميه « الاحلام الطيبة » أعنى القصص المبعثرة فى الديانات المختلفة عن إله مات ثم بُعث الى الحياة ، فأعاد بذلك الحياة للبشر .

وثانياً : اختار الله لنفسه شعباً خاصاً ، وفى قرون عديدة حاول أن يضع فى أفكارهم شيئاً عن ذاته بأنه واحد ، وأنه يهتم بالسلوك الصائب . وتجد قصة هؤلاء اليهود فى العهد القديم .

وأخيراً جاء بين اليهود إنسان يتكلم كأنه الله . يقول إنه يغفر الخطايا ، وإنه أزلى ، وإنه سيأتى فى آخر الأيام ليدين العالم . ولو كان هذا الانسان قد جاء بين الهنود الذين يؤمنون بمذهب وحدة الكون ، وأنهم جزء من الله ، لكان هذا عادياً ... لكنه جاء بين اليهود الذين يؤمنون أن الله كائن خارج العالم وقد خلقه ، ولذلك

نرى أن ما قاله هذا الانسان أغرب ما نطقت به شفاه بشرية !!

ويقول البعض إنهم مستعدون أن يقبلوا هذا الانسان (المسيح) كمعلم أخلاقى عظيم ، لكنهم لا يؤمنون بأنه الله ، وهذا شيء لا يجب أن يُقال . فان الانسان الذى ينطق بما نطق به المسيح لا يمكن أن يكون معلماً عظيماً فقط ، فانه إن لم يكن إلهاً حقاً فإنه يكون شيطاناً مريداً ، أو مجنوناً مخبولاً .

لابد أن يكون هذا الانسان إذاً إما « ابن الله » أو مجنوناً .

فاحكم عليه بالموت كشيطان أو مجنون ، أو خرَّ عند قدميه كربٍّ وإله ، لكن سخافات القائلين إنه معلم إنسانى عظيم ، لا موضع لها ، فان المسيح نفسه لم يفتح الباب لقول كهذا !

الحديث الرابع

لماذا جاء المسيح ؟

جاء ليعلّم ؟ ..

لكن العهد الجديد وكتابات المسيحيين تتحدث عن موته وقيامته ثانية ، ويقولون إن هذا سر مجيئه ، فقد جاء ليتألم ويموت !

ولقد تحيَّرت قبل إيمانى بالمسيحية من تحليل المسيحيين لموت مسيحهم ، فقد قالوا إن الله أراد أن يعاقب الناس لأنهم تركوه وتمردوا عليه ، لكن المسيح تألم بدلنا اختياراً ، فخلصنا .

لكننى وجدت بعد إيمانى بالمسيحية أن هذا ليس السبب الحقيقى ، لكن السبب الحقيقى هو أن موت المسيح أصلح موقفنا مع الله ، ووهبنا بداية جديدة .

أما كيف يكون ذلك ، فقد تعددت النظريات فيه — لكن المسيحيين يعتقدون ويتفقون أنه حدث . وهذا الاختلاف فى نظرى يشبه الاختلاف فى النظريات المختلفة الحديثة فى التغذية ، فقد كان الناس قبلها يأكلون ، وحتى لو هُجرت هذه النظريات فى المستقبل

فإن الناس ستستمر تأكل .

والنظريات عن موت المسيح ليست هى المسيحية ، لكنها مجرد إيضاحات وشروح ، لا يُطلب منك أن تقبلها كلها ، لأنها كالتصويرات المحسوسة التى يوضّح بها العلماء نظرياتهم العلمية ، لكنهم يحذّرون من إساءة فهمها ... فالعلماء يقدّمون نظريات . وما هذه التصويرات إلا وسائل لتوضيحها ، إن ساعدتك فاستعن بها ، وإلا فاتركها .

والفكرة الرئيسية فى المسيحية هى موت المسيح ، وهى فكرة لا يمكننا أن نصوّرها ، ولا يمكن فهمها !

وقد تقول : « ما جدوى إيمانى بشىء لا أفهمه ؟ » .

وجوابنا أنه يمكن للإنسان أن يقبل ما فعله المسيح دون أن يفهم كيف ، كما أن من يأكل طعامه يعلم أنه سيغذيه ، وإن كان يجهل كيف يحدث ذلك . غير أن الإنسان سوف يعلم حين يقبل ويؤمن .

المسيحية : هى أن المسيح مات من أجلنا . وأن موته أنقذنا من خطايانا ، وهزم الموت ... والنظريات التى توضح كيف أحدث موت المسيح هذا كله ، مسألة ثانوية فى نظرى ، ويمكننا تركها . لكن ذلك لا يمنع أن نلقى نظرة عليها .

النظرية الأولى المشهورة تقول إن المسيح حمل العقاب عنا ،

فخلّصنا نحن ومات هو . وتبدو هذه النظرية عند تفكيرنا فى المحاكمات البشرية سخيفة جداً ، فإن كان الله يريد أن يخلّصنا ، فلماذا لم يخلصنا بدون واسطة ؟ وما العدل فى إدانة شخص برىء ؟!

ولكن هذه النظرية تصير مقبولة إذا نظرنا اليها من جهة شخص يدفع ديون آخر دون تحمل عقاب ــ وما من شك فى أن الشخص الذى يقع فى مأزق ، لا يخلصه إلا صديق محب !!

مأزق وقعنا فيـه :

يتصرف الإنسان كأنه ملك نفسه ... ومن هذا نرى أن الانسان الساقط ليس مخلوقاً فاسداً محتاجاً للإصلاح ، بل هو ثائر متمرد ينبغى أن يسلّم سلاحه . وبالتسليم والاعتراف بالخطأ يكون الانسان مستعداً لبدء حياة جديدة ... وهذا ما يسميه المسيحيون « التوبة » وهو الطريق الوحيد للخروج من المأزق .

وليست التوبة سهلة ، فهى تعنى الإقلاع عن كل اعتداد بالذات وترك التمسك بالارادة البشرية ، بل هى تحمل معنى قتل جزء من النفس ... فلابد إذاً من إنسان صالح ليتوب ، وهنا المهم ــ فلا يحتاج الى التوبة إلا الانسان الشرير ، ولكن لا يقدر أن يحصل عليها إلا الانسان الصالح ، ولا يتوب التوبة الكاملة إلا الرجل الكامل ، الذى هو فعلاً فى غير حاجة الى توبة !!

والشر هو الذى يوقفنا موقف المحتاج للتوبة ، وموقف العاجز عنها !!

كيف السبيل الى التوبة ؟

ان السبيل اليها تبلغه عن طريق معونة الله ، ونعني أن الله يضع جزءاً من نفسه فينا (إن جاز هذا التعبير) ، فيضع فينا من قوة عقله المفكر قوة نفكر بها ، ومن محبته محبة لكى نحب بها الآخرين . أنه يمسك بأيدينا كما يمسك الأب بيد طفله لكى يعلّمه الكتابة ، فيكتب الطفل بيد والده .

لكننا نحتاج الى التسليم والخضوع والموت لكى نتوب ، الأمور التى لا يفعلها الله بطبيعته ، لأنه لا يخضع ولا يسلم ولا يموت ، وهو فى هذه الحالة لا يمكنه أن يساعدنا !

لكن لو صار الله إنساناً ، ولو اتحدت طبيعته الإلهية بطبيعة بشرية فى شخص واحد ، لأمكنه أن يسلم إرادته ويموت كإنسان ، ولأمكنه أن يكون كاملا لأنه إله .

وأنت وأنا لا يمكن أن نتوب إلا بمساعدة الله ، والله لا يساعد إلا إذا صار إنساناً مثلنا !

ونحن نقدر أن نموت عن الذنب لو استعنّا بموت « كلمة » الله

ولبيّنا نداء محبته فى الألم والموت .

ولكن « كلمة » الله لا يموت إلا إذا صار إنساناً .

لهذا مات المسيح ليكون عوناً لنا على التوبة ، ومساعداً لنا على إصلاح موقفنا مع الله .

بهذه الكيفية أفهم موت المسيح .

لكن لا تنس أن هذا ليس إلا مجرد تصوير لنظرية .

قد يعينك فاحتفظ به ،

وقد لا يعينك فاتركه .

الحديث الخامس

الايمان والحياة الجديدة

يتساءل العالم اليوم عن الخطوة التالية فى سلم الارتقاء ، والمسيحية تقدم له هذه الخطوة ، فقد ظهر فى المسيح نوع جديد من الناس يحيون مثله !

كيف يحدث هذا ؟

لقد اتخذنا حياتنا الحالية من الآخرين ـــ أعنى من أبينا وأمنا وجدودنا ، ولم يكن ذلك باختيارنا ، فكان فيها السرور مع الألم والأمان مع الخطر . وهذا وضع غريب ! والاله الذى وضع هذا النظام قد وضع نظام الحياة الجديدة ـــ حياة المسيح فينا ـــ على النهج عينه ، أى بدون أن يستشيرنا !

والايمان يضع حياة المسيح فينا ، وهى الحياة الجديدة ولست أعرف تفسيراً لذلك ، لكننى وإن لم أعرف كيف ، إلا أننى أعرف السبب ، فقد علّم المسيح تلاميذه أن الايمان هو السبب ، وأنا أقبل هذا القول على مسئوليته ، وأعنى بهذا أننى أقبله لأن شخصاً موثوقاً

به قاله . فأنا أؤمن بوجود نيويورك مع أنني لم أرها ، لكن أشخاصاً موثوقاً بهم قالوا إنها موجودة ، وأنا أقبل هذا القول على مسئوليتهم . والانسان الذى لا يؤمن بالدِّين يشبه الانسان الذى لا يصدق أى معلومات ما لم يتحققها بنفسه ، وتكون نتيجة هذا أنه لابد أن يجهل كل شيء !

لكن الايمان وحده لا يكفى ، إذ ينبغى أن يتمثَّل المؤمن بالمسيح . وكما أنك تهتم بحياتك التى أخذتها حين وُلدت فلا تتركها دون عناية ، فقد تفقدها إذا أهملت أو انتحرت ، هكذا ينبغى أن تحفظ حياتك الجديدة التى أخذتها من الله ، فتهتم بها ولا تهملها .

على أن جسدك قد يُجرح ويُصاب . لكنه يُشفى لأن به حياة ، والحياة تعوض ... وهكذا صاحب الحياة الجديدة يخطىء ويسقط ، لكن حياة المسيح فيه تقيمه من سقطته وتمكّنه أن يموت عن الخطأ كما مات المسيح بالجسد .

ويختلف المسيحى عن الذين يحاولون أن يكونوا صالحين ، فهم يحاولون بذلك أن يرضوا الله أو يرضوا الناس الصالحين . لكن المسيحى يعتقد أن صلاحه مستمد من حياة المسيح فيه . وهو لا يظن أن الله يحبه لأنه صالح ، ولكن الله يجعله صالحاً لأنه يحبه !

والمسيحيون لا يعتقدون أن حياة المسيح فيهم شيء عقلى أخلاق . فهم لا يقولون إنهم يقلّدون المسيح بتفكيرهم فى حياته وتعليمه .

لكنهم يقولون إن المسيح يعمل فيهم ، وإن المسيحيين هم أصابع وخلايا جسد المسيح ، وهم أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه !

ماذا عن الذين لم يسمعوا ؟

وقد يتساءل البعض : « إن كانت الحياة الجديدة تُعطَى لمن يسمعون عن المسيح ويؤمنون به فماذا عن الذين لم يسمعوا؟ » .

وجوابنا أنه على الرغم من معرفتنا بأنه لا خلاص إلا بالمسيح ، إلا أننا لا نعرف جواباً لهذا السؤال . فإن كنت مشغولاً بمن لم يسمع فلا معنى لأن تقف خارجاً . فالمسيحيون هم أعضاء المسيح التى يعمل بها . وكلما ازداد عملهم اتسع العمل . فان كنت تريد مساعدة الذين لم يسمعوا ، فلتكن أحد خلايا جسد المسيح ، ليمكنك أن تعينهم .

لماذا يعمل المسيح سرا ؟

ويتساءل البعض الآخر : « إن كانت الأرض قد احتلها العدو ، فلماذا لا يعمل المسيح على هدم حصون الشر علناً ، ويعمل بالقوة لغزوها . أليست لديه القوة ؟؟ » .

والجواب أن المسيحيين يعلمون أنه سيأتى يوماً بالقوة ، ولكنهم لا يعلمون متى ؟ وأما سر هذا التأخير فهو أنه يريد أن يعطى البشر فرصة اختيار الحياة الجديدة طوعاً .



هذا الكتاب

الطريق إلى الحق ، قد يكون شاقاً ، لكنه طبيعى . طريق ، يمكن لأى فرد منا أن يمر به ، لكن ليس الجميع يكملونه حتى النهاية . طريق استكشاف واستقراء وبحث مضن . طريق من ينشد ضالة ، ليست عن أى منا ببعيدة .

هذا هو الطريق الذى يسير فيه الملحد حتى يؤمن .

إنك فى الطريق ، حتى وإن لم تبدأه من بدايته ،

لكنك حتى الآن فى نقطة ما عليه .



23

دار الثقافة
٧٥